الأهرام

المصدر: الحيـــــاة

التاريخ: ٢٠ يونيـــو ١٩٩١

هل من نظام عربي جديد ينبثق من العقال ومسؤولياتهم؟

عبدالحميد البكوش *

■ على رغم انني اكتب هذه المرة عن نظام عربي جديد مطلوب الا انني اجد من المناسب ان ابدأ بمقدمة عن الفكر العربي المعاصر وما ارى فيه من مظاهر القصور.

فهذا الفكر الذي نصفه بالعصري بعيد عن العصر، ولوع اشد الولع بالفكر العربي القديم المعقد بل والبالغ التعتيق.

فالقدم عندنا ليس وجهة نظر وانما اسلوب ومنهج للتفكير، وهذا المنهج ليس قاصرا على فكر بعينه وانما يتعداه الى مجالات البحث والمعرفة كلها من سياسة واقتصاد واجتماع وعلوم وحتى في علم النفس.

لقد نصبنا في هذا العصر خياما من التاريخ نجتر فيها تراث الماضي ثم نلفظه ثم نعيد اجتراره من جديد ونحن في نشوة من الاعجاب بما كنا عليه، من دون ان نكلف عقولنا مواجهة مشاكل العصر ومتطلباته، ونحن نقرأ في كتب الاسلاف عن الدين والاقتصاد والسياسة وعندما نكتشف ان هناك موضوعات لم يتحدثوا فيها او يكتبوا عنها نفترض على الفور انهم تحدثوا وكتبوا ثم نقيس رؤيتهم لقضاياهم على رؤيتنا لقضايانا ملتمسين لديهم حلولا قديمة نلبسها لباس التجديد، فان لم نعثر على شيء عندهم هربنا الى البحث في امور مفترضة وموضوعات من صنع الخيال.

ان معظمنا لا يزال يبحث عن فهم لقضايا العصر الذي نعيشه وعن حلول للمشاكل التي نواجهها على موائد القديم.

يفعل هذا معظم من يفكر بالعربية اذ ينصرفون الى محاولة لتفصيل ملابس للحاضر من قماش مضت عليه مئات السنين، اما من لا يطيق الصوم في ما مضى من تراث فانه يتوجه الى قضايا يغلب عليها الافتراض ويشغل نفسه ويشغلنا بالبحث في مشاكل لم توجد بعد او مشاكل ليست لها علاقة مباشرة بحياتنا وهكذا نقف جهودنا في الاحوال جميعها على الاعجاب بتراث الماضي والتنقيب عن الحلول بين اكوامه وكذلك الهرب الى فضاء لا نملك فيها الآن ناقة ولا جملا ولا حتى بضعة أرانب.

اني لا اريد هنا ان انكر على اجدادنا مواهبهم وجهودهم ولكني اريد ان انكر على مفكري العصر من العرب اصرارهم اما على العقود بين اطلال التراث من دون ان يتشككوا في تماسك احجارها، او هجرهم لقضاياهم الى قضايا يفترضونها، واعتقد انه حان الوقت لفحص غبار القدم عن عقولنا، ليس بالانتقاص من قدر التراث ولا بالتهوين من شأن العلماء والمفكرين من اسلافنا، ولكن باتباع منهج العقل المجرد والنظر في قضايانا بواقعية.

ان عقولنا اداة فهمنا بل هي اداة ايماننا فضعف بضعفها من يقول لنا وقد امنتم فلا تفكروا، وضعف يقنعنا من يريد ان يعرض قضايانا في الاقتصاد والاجتماع والسياسة على مؤتمر من الاقدمين، والى متى نظل حيارى بين من يعمل لاقناعنا بإمكان اصلاح الحاضر بأدوات الماضي وبين من يدعونا الى الهروب الى فضاء لا تلح علينا ولا تمسك بخناقنا؟

هذه مقدمة لما اريد الحديث عنه والذي موضح قدم منهجنا في التفكير - ذلك المنهج الذي ادى بنا في مجال العلاقات الدولية الى افلاس. الاول هروبنا من الحديث عن نظام

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

عربي يخصنا الى نظام دولي لا دور لنا يذكر فيه. والثاني معالجتنا علاقاتنا العربية معالجة هي غاية في العتق، والا كيف نفسر اعتقادنا بان النظام الدولي الجديد الذي استعل الحديث عنه عشية انهيار الاتحاد السوفياتي كدولة وانفراد الولايات المتحدة بدور الدولة الاقوى والوحيدة، هو نظام يجب ان يشغلنا امره اكثر مما يشغلنا الحديث عن نظام عربي يخصنا؟ ثم كيف نستسيغ الاعتقاد بان لدينا في تراثنا ما يزيد عن حاجتنا للتعامل مع ذلك النظام؟

ان ما اريد عرضه قبل المضي في هذا المقال هو ان اسلوب التفكير القديم امتد الى مجال السياسة عندما بعد ان كان قاصرا على مجالات الدين والآداب، الامر الذي جعلنا ننصرف عن الحديث في نظام عربي لن يكون لنا دوته حظ المشاركة في اي نظام عالمي جديد، مشغلين بالبحث عن

دور وهمي لنا في عالم القرن الواحد والعشرين.

ان الوقت حان لننفض غبار المنهج العتيق عن عقولنا ونفكر بطريقة عملية في هذا الامر، ولنسأل انفسنا اولا وقبل كل شيء: هل لنا نظام عربي دولي، وان وجد فما شكل هذا النظام وما محتواه؟ واذا كان النظام الدولي هو تنظيم لعلاقات بين دول فكيف تبدو لنا العلاقات العربية الدولية وإلى اين تسير؟

واذا امكن التمييز في النطاق العربي بين علاقات الشعوب وعلاقات الحكام امكننا ان نرى بلا كثير من العناء ان علاقات الشعوب العربية بعضها ببعض هي في ادنى حدّ لها، وحتى ذلك الحد الادنى رهين بعلاقات الحكام ينسع ويضيق مع حرارة العناق بين حاكم عربي واخر. اما علاقات الحكام فهي في معظمها امساك بالتلابيب وتوتر يصل الى حد اراقة الدماء، فما بين الجزائر والمغرب حول الصحراء الغربية وبين عرب الخليج وعرب العراق وبين سورية والعراق وبين الاردن وسورية وبين مصر والسودان وبين ليبيا وجميع العرب، كلها علاقات تستنزف الجهد والمال وتجعل من ارض الامة ارخبيلا من الجزر تفصلها عن بعضها البعض بحار من الدماء والاحقاد والهواجس والمؤامرات.

لقد ساد العلاقات العربية جو من الود والاخاء عقب الحرب العالمية الثانية وقامت الجامعة العربية كبيت يلتقي فيه العرب في ظل ظروف كانت على رغم كل ما قيل فيها ظروفا من الثقة والرغبة في التعاون ولو في اضيق الحدود، وذلك قبل ان تتتابع الانقلابات العسكرية الواعدة بالوحدة والحرية والاشتراكية وتحول الساحات العربية الى ميادين للقتل بالكلمات، ثم وبسرعة الى ميادين للقتل بالسلاح، والله يعلم كم سال من اللعاب العربي من كثرة الشتائم وكم سال من الدم العربي من كثرة الحروب.

لقد كانت العلاقات العربية، او نقول النظام العربي قبل عصر الانقلابات العسكرية، نظاما فيه كثير من الجدية والواقعية والوقار على رغم اتهامنا لكثير من الحكام بـ «الخيانة والرجعية والعمالة للاستعمار»، وكان العربي حقا اخا للعربي، وكانت وطأة السلطة على رغم ما ننسب اليها الآن من تهم اخف من وطأة مجالس الثورات وقيادات الانقلابات والزعماء الملهمين.

ولكن ومنذ ان خيمت في سماء الامة سحب المغامرين والعقداء الجهلة تفككت العلاقات العربية وانهار ذلك النظام العربي القديم وتحكمت في علاقات العرب الشكوك والاعتداءات والمؤامرات، وصارت الثقة بدول اجنبيه بل حتى باسرائيل لدى دول عربية،

اكثر واقعية من الثقة في الحكام العرب الذين لا هم لهم الا نسف جسور العلاقات العربية كلما سئموا ممارسة الظلم والقهر في بلادهم وكلما شبعوا من الرشاوي واخذتهم العزة بالارهاب. ان نظرة الى العلاقات العربية اليوم ترينا بوضوح كيف ان كل حاكم عربي يتوجس من حاكم عربي آخر وكيف يعد بعضهم العدة ليوم غدر.

هذه الحال المحزنة الكئيبة في العلاقات العربية هي صورة النظام العربي الحالي والذي يبدو وكأنه هرم من احجار الغدر والوفيقة والتآمر تجلس على قمته جامعة ميدان التحرير.

هذا هو النظام العربي الذي هو اكثر الانظمة تخلفا عن العصر والذي جعل العرب عاجزين عن الجلوس الى بعضهم البعض لمناقشة خلافاتهم وقضاياهم. اوليس غريبا ان لا يلتقي الحكام العرب لمناقشة ما بينهم من احقاد وقضايا بينما يجلسون في معظم عواصم العالم اليوم مع اسرائيل لمناقشة قضايا التنمية الاقتصادية ومشاكل المياه ونزع السلاح؟ واي وضع للنظام العربي اسوا من ان لا يناقش العرب قضايا تخص منطقتهم الا واسرائيل قاعدة بينهم؟

ولكن لماذا صار حال النظام العربي الى ما هو عليه وفي العرب حكام عقلاء وهم وان لم يبلغوا المثال الذي نتمناه يتميزون بحق عن الحكام الشواذ المنحرفين خصوصا ان هؤلاء العقلاء الاغلبية فيما المعامرون ليسوا سوى اقلية بينهم؟

تتطلب الاجابة عن هذا السؤال صراحة املكها وهي اجابة ليست غائبة عن كثير من العرب الذين يضمرونها، اما انا فلن اضمرها ولن اخفيها، ولا بد من ان نمخض العقول العربية الحامضة بشدة ، فشدة المخض هي التي تخرج الزبد.

ان السبب في هلهلة النظام العربي الحالي هو انقياد الغالبية من حكام العرب العقلاء لقلة من الحكام الانقلابيين الذين وصلوا إلى السلطة عن طريق مؤامرات منتصف الليل التي تودي إلى احتلال الاذاعة والاستيلاء على

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

رئاسة الاركان، هؤلاء الذين يملأون الدنيا ضجيجا وعجيجا في خطب عن الحرية والعدالة ومحاربة الاستعمار فيما هم ينبحون الحرية والعدالة ويخدمون الاستعمار، بل ان بعضهم مثل معمر القذافي في ليبيا يقول انه صاحب العناية بمستقبل البشرية ولديه الحل النهائي لجميع مشاكل الانسان.

إن في الأمة حكاما وان لم يبلغوا درجة الحاكم الديموقراطي الكامل الذي نحلم به او نكتب عنه ولكنهم على درجة من التعقل والوقار والخير تجعلهم يحترمون حدا لحقوق الانسان في بلادهم، وبقدر ما يحرصون على سلامة حكمهم يحرصون ايضا على اتاحة الفرصة امام شعوبهم للتعلم وتنمو وتتقدم بل لتتطلع حتى إلى الازدهار، وهم لا يخططون للمؤامرات والحروب وقلب انظمة الجيران وغير الجيران واغتيال المعارضين وسفك دماء ركاب الطائرات، وانا اذ اعرف ان هذا الكلام قد يجر عليّ تهمة الزلفى والتمسح بانظمة عربية معينة، فانا بالطبع لا اتزلف لاحد، ولكن اذا فرض علينا جميعا ان نتزلف الن يكون من الأولى ان نتزلف إلى حاكم يعف ويخجل بدلا من ان نتزلف إلى حاكم يحترف إراقة الدماء؟

انني لا اتزلف ولا ابغي الدفاع عن نظام عربي معين ولكني اريد أن اكون واقعيا وموضوعيا مع مشاكلنا، وكما يقولون إن المتشائم هو من يلعن الريح التي تعصف بشراع السفينة والمتفائل هو الذي ينتظر ان تهدأ الريح اما الواقعي فيقوم بتعديل الشراع.

اننا لا نتوقع لا خلال هذا القرن ولا خلال القرن الواحد والعشرين ان يسود فيه ديموقراطي كامل، وما دام العساكر الانقلابيون الذين خدعونا بالحديث عن الوحدة والحرية ثم غاصوا في اجسادنا حتى العظم تعذيبا وقتلا وحرمانا من اية حرية هم الذين عاثوا في العلاقات العربية تفكيكا وهدماً، فإننا، ونحن مجبرون على الاختيار بين واقعين، واقع الحاكم المتعقل الذي يعف ويسمح ولا يمارس العنف إلا لحماية النظام ولا يحمل في يده معولا لهدم العلاقات العربية، وواقع حاكم لا يعف ولا يسمح ويمارس العنف بسبب وبلا بسبب ويهوي بكل معاوله على أوصال العلاقات العربية (وتذكروا معي خطب العقيد معمر القذافي حاكم ليبيا وهو يعلن بنفسه في الاذاعة والتلفزيون انه بعد ان يسبي نساء معارضيه ويبتم اطفالهم سوف يلقي بالحكام العرب إلى «مزبلة» التاريخ). اننا ونحن مجبرون على الاختيار بين واقعين لا بد لنا من ان ننحاز إلى واقع العقل لا إلى واقع الجريمة.

ان الفرق في الدعوة إلى الديموقراطيه المثالية هو امر واجب ولكن السكوت عن حكام عرب مغامرين ووصم اخرين بالتخلف هو تضليل للعقول العربية، فقبل ان نحلم بالوصول إلى مستوى الأمم المتقدمة لا بد لنا من تنظيف الطريق من الاشواك والحواجز ر بد لنا من تفضيل الحاكم العربي العاقل وان لم يكن المثال الذي نتمناه.

ان العيش في السعودية او الامارات او في اي بلد عربي يحكمه عقلاء ناهيك عن مصر التي يتمتع فيها الانسان باكبر قدر من الحرية، لا يمكن ان يقارن بالعيش في سورية او ليبيا او السودان. فحيث يحكم العقلاء كما في مصر والجزيرة والمغرب العربي تزدهر حياة المواطن ويستقر امنه وان لم يتوافر له الحد المثالي من الديموقراطية، بينما يُمتهن الانسان ويذل في كل بلاد يحكمها من ولي السلطة عن طريق الانقلاب بل ويقطع راسه وتطحن عظامه وتنتهك حرمة انسانيته في بلد مثل ليبيا.

إني ادعو إلى نظام عربي جديد يسود فيه الحكام العقلاء ما بمنا لم نصل إلى عصر الشعوب، ويجب علينا دعوة الحكام العرب في الجزيرة والمغرب العربي ومصر إلى ان يتسلموا زمام امر العرب ويشرعوا في بناء نظام عربي جديد يفرضونه على القلة المغامرة من حكام الانقلابات.

فمعظم الحكام العرب يخشون عقد لقاء لهم من دون موافقة سورية وليبيا واليمن التعيس في حين ان كل هؤلاء الحكام المغامرين لا يمثلون اي ثقل في الأمة العربية سوى ثقل الضجة واسهال الكلمات، فهم ليسوا اعلى العرب مكانة ولا اغناهم مالا ولا اغلبهم جيوشا، ولذلك يجب ان لا يسمح لهم بان يسوقوا حكام الأمة العقلاء بالتخويف والارهاب وكثرة الكلام.

ان الحكام العرب الذين لم يقفزوا إلى كراسي الحكم بقوة الانقلاب قادرون على استجماع إرادتهم وحل خلافاتهم إن وجدت، وصياغة نظام عربي جديد تسوده روح التعاون والود والمصالح المشتركة، فلن يفرقهم شيء إذا تخلصوا من اعشاش الشكوك والمؤامرات التي يزرعها الانقلابيون بين صفوفهم.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

لقد حان الوقت للعرب العقلاء ان يرفضوا كل حاكم من ادعياء الحرية والوحدة وان يتوقفوا عن ضخ الدماء في عروق حكام يستعبدون شعوبهم ويحترف بعضهم تمزيق شمل الأمة العربية وتدبير المؤامرات ضد سلامة اوطانها، وبعضهم مثل العقيد معمر القذافي يزيد على ذلك بجره الأمة إلى التضامن معه في جرائم إرهاب يرتكبها مستغلا خجل الحكام وجهل بعض المحكومين. ترى كيف يتوقع العرب نظاما عربيا يؤمن لهم الاستقرار ويمكنهم من المشاركة في أي نظام دولي والعقلاء منهم يسايرون السفهاء والاقوياء فيهم ينحنون للضعفاء والزبد فيهم هو الذي يمكث في الأرض!

لقد حان الوقت لان يلتقي الحكام العرب العقلاء وحدهم في وضح النهار لصياغة نظام عربي جديد، فليس بينهم ولا بين شعوبهم ما يفرقهم وبإمكانهم حقا لو واجهوا الشواذ والمغامرين بينهم ان يفرضوا للنظام الجديد قواعد تؤمن تعاونهم وتضامنهم وتفرض بحزم على اولئك المتنطعين، ولست ارى ما يباعد بين حكامنا العقلاء لو اجتمعوا، فهم سيحافظون على كل ما هو مشترك بينهم حتى في حال الخلاف. وبلقائهم من موقع قوة سوف يستطيعون حتماً صناعة النظام العربي الجديد بما فيه من تطوير لأجهزة التعاون بينهم وتوحيد لصفوفهم للدفاع عن مصالحهم ومصالح شعوبهم، ولعلهم لو فعلوا سيوفقون إلى الاتفاق على احترام حد ادنى من حقوق الإنسان ومشاركة الشعوب في اتخاذ القرار، ولعلهم ايضا يجعلون من جامعة ميدان التحرير جامعة للدول العربية.

ان النظام العربي الجديد سيظل حلما ولن يتحول إلى رغبة إلا إذا تحركت إرادة عقلاء الأمة لمواجهة السفهاء، فالرغبات هي عبارة عن احلام بلا محاولة لتحقيقها، وانا اعلم ان تنفيذ النصيحة مسالة اصعب من إسدائها، ولكن بداية ما، في يوم ما، في مكان ما، امر لا بد منه إذا اردنا ان يبقى في الأرض ما ينفع الناس.

• رئيس
وزراء ليبيا
الأسبق.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية